كتب الأخبار وأثرها في النقد العربي القديم
" البيان والتبيين للجاحظ أنموذجا"

د. عمر بن طرية جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص:

تهدف هذه الدراسة - لاشك – إلى تبيان أهمية كتب الأدب والأخبار في الدرس النقدي، ومدى إسهامها في إثراء مجالات الفكر والثقافة والمعرفة الإنسانية، وما حوته من الزاد و التزود، والعمل على إكساب الدارس والمتلقي معرفة موسوعية، و ثقافة غزيرة في شتى صنوف الفنون و العلوم التي لا يمكن الاستغناء عنها، في الدراسة والبحث، وتتخذ الدراسة من كتاب البيان والتبيين، فضاء رحبا للتطبيق والإبانة عن المكانة الهامة التي تحتلها كتب الأخبار في الحياة العلمية والأدبية.

Abstract:

This study aims - no doubt - to illustrate the importance of literature and news in literary criticism، and the extent of their contribution to enrich the fields of thought and culture and human knowledge، and what Hute of intake and supply، and to give the student and the receiver encyclopedic knowledge، and heavy culture in various forms of the arts and sciences that can not be dispensed with، in the study and research، and to take the study of the book albayan walttabyin، plenty of space for the application and designation for the important place occupied News wrote in the scientific and literary life started.

توطئة:

كتب الأخبار- بالكثرة بمكان- لا يمكن الوقوف عندها وحصرها، وإنما سأكتفي بالإشارة إلى بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر، منها: الكامل للمبرد، والأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه... وغيرها. والبيان والتبيين للجاحظ محط الدراسة ولكن قبل الخوض في استعراض بعض كتب الأخبار؛ تعريفا ومضمونا ومنهجا، وانتخابا لنماذج منها. وجب الإشارة إلى الطريقة التي وصلت بها الأخبار والمرويات والأشعار وغيرها إلى الأجيال، ولو بشيء من الإيجاز والاختصار بقدر ما يسمح به المقام سعيا من أجل تسليط بعض الأضواء الكاشفة حول ما اصطلح عليه بالرواية الشفهية.

الرواية الشفهية ودورها في نقل التراث الإبداعي:

الأمة العربية الإسلامية _ ولاريب _ خلفت رصيدا معرفيا ضخما ثمينا لا يستهان به تبلور بصفة خاصة في النتاج اللغوي والأدبي طيلة قرونها الأولى بداية من العصر الجاهلي حتى أوائل العصر العباسي كان هذا النتاج الغزير الثري يومئذ يصطبغ بصبغة السماع والرواية، أي المشافهة، ولم يكن محررا، أو مدونا في كتب كما هي الحال عند الفرس، واليونان، و غيرهما.

يقول أحمد أمين: "... بل إنتاج أدبي ، وليس محررا في كتب كالتي دونها الفرس واليونان ، وإنما هو شفوي - إلا في القليل النادر - يتناقله جيل عن جيل "[1] ومن هذا المنطلق يتبين أن التراث العربي الضخم ظل ردحا من الزمن يعتمد الرواية الشفهية والذاكرة، فثقافة العرب في أغلبها تعتمد عليهما، وقد " كانت كلها في جاهليتها ثقافة شفوية تعتمد على الذاكرة والرواية " [2] ومن ثمة لا يخفى على كل ذي بصر أن البوادي كانت وقتئذ منبعا أصيلا، وموردا لا ينضب للثقافة العربية، فكان العلماء، والأدباء، واللغويون يتلقون اللغة والأدب على عرب البادية الأقحاح الذين صفت قرائحهم، وصحت لغتهم، وكانوا حجر الأساس في ثقافة الأمة العربية وبناء صرحها. يقول أحمد أمين:"وكان عرب البادية في ذلك العصر مصدر اللغة والأدب معا "[3] ولذلك كان للعرب أدب غزير ممتع، تمخض عنه رواية للغة، ورواية للأدب، مما جعل _ في الأغلب الأعم_ تداخل الروا يتين ؛ بمعنى قد ترد رواية اللغة في ثنايا رواية الأدب، أو العكس، فالجاحظ له حديث رائع حول الأخذ والسماع عن الأعراب الفصحاء النابهين، وما امتاز به كلامهم من فوائد جمة ولذة مثيرة، وطرفة ممتعة، وأنه "ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا انفع، ولا أنق، ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء، والعلماء البلغاء "[4] وعلى الرغم من أن العرب كانت تعتمد على الرواية و المشافهة والذاكرة، إلا أن ثقافتهم لم تكن بمنأى عن التحريف و التصحيف والضياع، ومن ثم أكدت المصادر على أن جانبا هائلا من التراث المروي شفاها ضاع، إما بموت الرواة الحفاظ أو عامل التحريف والانتحال، أو سقط من يد الزمن، وتعرض لعواديه، ولذلك قال أبو عمرو بن العلاء " ما انتهى إليكم مما قالت العرب

إلا أقله، ولو جاءكم وافـــرا لجاءكم علم و شعر كثير" [5] وفي هذا إ شارة وا ضحة على أن سهما وافرا من التراث العربي قد ضـاع واندثر. وعلى الرغم من ذلك، فإن الرواية الشـفهية ظلت- عبر هذه الحقب- هي الأداة الناقلة للثقافة العربية خاصة في العصرين الجاهلي والإسلامي تتـناقله الأجيال جيلا عـن جيـل. هـذا التـراث الـذي تمـت نقولـه عـن طريـق الرواية - في الأغلب الأعم- كان صحيحا، والقليل فيه داخله الوضع والنحل من قبـل بـعض الرواة الذين انعدمت فيهم روح الثقة، فعمدوا إلى الكذب والتصحيف والتـزوير، ورغم ذلك ظلت الرواية إلى بدايات القرن الثالث الهجري العمود الفقري ا لذي يسـتـند عل يه الأدب واللـغة، إذ " ظل الأدب واللـغة في العصـر الإسلامـي يـعتمد على الحفظ والرواية حتى نهاية الدولة الأموية، وبدايـة الدولـة العـباسية، أين هم العلماء بالتدوين " [6] وفي مرحلة التدوين انبرى لـفـيف من العلمـاء و الأدباء واللغويين إلى عملية التمحيص والغربلة، والتثمين للتمييز بين الـ صحيح والمنحول، واعتمـــدوا في ذلك على منهج أهل الحديث وطبقوه على المرويات الأدبية واللغوية. وقد تمثلت الرواية الشـفهية في العصرين الجاهلي والإسلامي في روايـــة الشـــعر وحفظه واستظهاره، والغاية من ذلك إذاعته، وشيوعه بين الناس من جـهة، وليشتهر قائله من جهة أخرى، كما كانت تعتمد على رواية اللغـة والأخـــبار، والسير والأنساب التي كانت من مفاخر العرب، وعمود ثقافتها. ومهما يكن من أمر، فإن الرواية في الأدب القديم ضـاربة بجذورها في الأعـــماق قديمة قدم الإنســان الجاهلي، فالجاهليون كانوا يعتمدون على الحـــــفظ والذاكرة، فيتناقلون الأشعار، والقصص، والأمثال، والنوادر، والملح وغيرها فيما بينهم.

ومن هنا فالرواية كانت عمدة من أعمدة الثقافة العربية، ولـــولاها ما كـــان للأدب خاصة، وللعلوم عامة أن تعرف وتذاع بهذه الكيفية، وتصل إلى الأجيال اللاحقة، كما يرجع إليها السبب في إقامة أصول التراث وصيانته، والعمل على وفرته ونموه، وهاهو المسعودي يوضح ما لعلم الأخبار من أهمية في الحفاظ على العلوم والمعارف فيقول:" ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبـطل أول العـلم وضاع آخره... وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل، ويستعـذب موقـعه الأحمق والعاقل، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصي والعامي، ويميل إلى رواياته العربي والعجمي "[7]

وقصارى القول: كان للرواة الفضل كل الفضل على الأدب العربي ؛ لأنهم اخذوا على عاتقهم رواية الشـعر، والأخبار، و الأنسـاب، والحديث، واللغة، وغيرها، فبذلك حافظوا على التراث من الضـــياع، وأنقذ وه من يد الزمان، وجنبوه بطش الدهر وعواديه. ليس هذا فحسب، وإنما كان للرواة اليد الطولى، والباع الأوفر، والأثر البـــالغ، والبصـمة العميقة في الحفاظ على البقية المتبقية من تراث الأمـة، ولـولاهـم ما وصلنا عن الأدب العربي وفنونه، وأعلامه شيء.

تعريفها:

كتب الأخبار مصـــنفات تعنى بإيراد أخبار الشـــعراء و الأدباء، و الخلفاء ؛ توضـــيحا لأشـــعار الشعراء، وفنون الأدباء، ومواقف الخلفاء ومجالسهـــم، ونواديـــهـــم، وملحهم، كما تتعرض إلى الجوانب اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، شـــرحا وتبيانا للأشـــعار، و القصـــص، والنوادر والطرف.

وكتب الأخبار – ولا ريب- ضاربة بجذورها في القدم، وتروي كتب التراجم والطبقات أن أول كتاب صنف في الأخبار جمعه الراوي "الفـــقـــعسي " في أواخر القرن الثاني الهجري، ولكنه ضاع كما ذكر ذلك صاحب الفهـــرست. وعـــنوان الكتاب " مآثر بني أسد وأشعارها" ([8]). من هنا يتبين أن كتب الأخبار قديمة في الأدب العربي، إذ تحدد زمنها بالقرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي.

مضمونها:

كتب الأخبار تضـــم بين دفتيها ضـــروبا متنوعة من الثقافة و المعرفة، فهي كتـــــب غير متخصصة، ولا تشتمل على فن من الفنون، وإنما تعالج فنونا شتى في مجالات مختلفة ؛ فهي تغذي العقل، وتنمي الفكر، وترهف الحس. ثم بعد ذلك ذاع صـــيتها وشـــاعت في أصـــقـــــاع المعمورة. وصـــدق ابن قتيبة حيث قال: "من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا فليتســـع في العلوم " ([9]) وهذا القول ينعكس على كتب الأخبار ومضـــامينها، لأنها تســـعى إلى إكســـاب القارئ ثقافة موســـوعية، وعلما غزيرا، ويتجلى ذلك في قوله:"ومن أراد إن يكون أديبا فليتسع في العلوم "([10]) ومن ثمة فكتب الأخبار تعطي المتلقي من كل عـــــلم طرفا كما قال ابن خلدون في تعريف كلمة الأدب:"الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف." ([11] [11])

أما عن أسلوبها وطريقة عرضـها، فهي تجنح إلى الاسـتطراد، والاسـتطراد هو الانتقال من موضوع إلي آخر، ومن فكرة إلي أخرى، محدثة بذلك التـــنوع في ضروب المعرفة، كما أن هذه الطريقة تمتزج بالدعابة، والفكاهة، مـــــما يجعل المتلقي يقبل عليها بشـغف و نهم، ولا يملها رغم توسعها و إسهابها.

و المنهج السائد في كتـــب الأخبار يجـــمع بين الجـــد و الهزل، و يجنـــح إلى الاستطراد أثناء طرح الموضوعات، ومعالجتها.

وأصـحاب هذه المصـــــنفات قصـدوا إلى هذا المنهج عن قصـد ودراية، وليس جهلا منهم بأصول الكتابة، وضـــروب التأليف، والكثير منهم سوغ وقدم الأسباب التي دفعت به إلى انتهاج الاستطراد، والجمع بين الجد والهزل، و القاسم المشترك بينهم في نقطتين هامتين:

أ- التنوع في المعرفة، والغـــــــرض منه إكساب المتلقي ثقافة موسوعية، وتكوين دائرة معارف علمية وأدبية في شتى ضروب الإبداع.

ب-الجمع بين الجد والهزل؛ الغرض منه الترويح على المتلقي، وإبعاد شبح الملل والسأم عنه، حتى يتمكن من المتابعة المستمرة ؛ والاستفادة القصوى من هذه الكتب النفيسة، وفي هذا السياق يقول الجاحظ:"فإن مللت الكتاب واستثقلت القراءة، فأنت حينئذ أعذر، وما عندي لك من الحيلة إلا أن أظهره لك في أحسن صورة، وأقلبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرج من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرج من الحديث إلا إلى الشعر الصحيح، ولا تخرج من الشعر الصحيح الظريف إلا إلى المثل السائر الواقع..." (12)

وإلى مثل هذا أشار المبرد في كتابه الكامل حيث يقول: " نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئا؛ لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفي الملل، ليحسن موقع الاستطراف، وتخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل، ليستريح إليه القلب، وتسكن إليه النفس " (13)

البيان و التبيين:

1_التعريف به:

أجمع الدارسون على أن كتاب البيان والتبيين أصل من أصول الأدب وركن من أركانه التي يرتكز عليها، ولذلك عده ابن خلدون واحدا من الدواوين الأربعة العظام التي سمع عنه من شيوخه.

البيان والتبيين كتاب أدب يضم بين دفتيه تراثا غزيرا نفيسا تمثل في الشعر والنثر، والخطب والوصايا، والحكم، والأمثال و الطرف والملح، والأخبار، وعلوم البلاغة وغيرها.

آلفه الجاحظ في آخر حياته، وقد تكالبت عليه الأوجاع، والأسقام والآلام. وعلى الرغم من هذه الأمراض واصل الجاحظ تأليف كتابه الذي جاء محصلة لآرائه الفكرية والأدبية والبيانية دلت على مراس طويل ، ونظرات عميقة، وحنكة بالغة في فن القول و الإبداع.و " هو كتاب في الأدب من آخر ما ألف الجاحظ "(14) قال المسعودي في معرض حديثه عن كتاب البيان و التبيين:"إنه جمع فيه بين المنثور و المنظوم و غرر الأشعار، و مستحسن الأخبار، و بليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر عليه لاكتفى به " (15 15)

2_ الباعث على تأليفه:

أرجع لفيف من الدارسين السبب الرئيسي الباعث على تأليف البيان و التبيين إلى الرد على النزعة الشعوبية التي تفشت في عصر الجاحظ، حين اشتط الشعوبيون في المفاخرة بأمجادهم، والتطاول على العرب، ورميهم بالتخلف والانحطاط، ناكرين نعم الأمة العربية عليهم، فانبرى لهم الجاحظ يسفه أحلامهم ويشجب أقوالهم، ويحط من أمجادهم وحضارتهم، مشيدا بالعرب وصفاتهم، وتمجيدهم، والإبانة عن تفوقهم، وإبراز عاداتهم وتقاليدهم المعروفة عنهم، وتصدى الجاحظ لكذب مزاعمهم، ورد سمومهم ومكائدهم.

والجاحظ أثناء دحض مقالة هؤلاء وصـــدهم وإبطال ســـمومهم، ينظر إليهم نظرة عاتية شـديدة، حانقة مشـحونة بألوان الانفعال، وضـروب الغضـب، وفي ذلك يقول:" اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعـدى عـلى دينه، ولا أشد استهلاكا لغرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل عتما من أهل هـــــذه النحلة، وقد شفى الصدور منه طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشـــنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتســـعر تلك النيران المضطرمة "([16])

ومن هنا يتضح أن الجاحظ عاصر حملة شعواء عـــلى العـــرب وآدابهم وعاداتهم ومفاخرهم من قبل الشـــعوبيين الذين أرادوا الانتقاص من شـــأن العرب، والحط من منزلتهم، فلم يجد الجاحظ مندوحة إلا أن يخط هذا الكتاب ردا عليهم، وانتصـــارا للعرب وحضـــارتهم.فكان هذا الكتـاب ثمـرة للـصراع الشعـوبي العـربي.

3-مضمون الكتاب:

و الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مولع بفن القول، ووجوه البلاغة و الفصـــاحة، متبعـــــا الألـــفاظ ومخـــارج الحروف، يميز عيوب الناس أثناء النطق كاللثغة، و اللـــكنة و الحـــصر * والعـي* لذلك يفتتح كتابه بالتعوذ من مشرور العي و الحصر، و يرى أن الصمت عصمة أمامها.

قال الجاحظ: "نعوذ بك من فتنة القول...كما نعوذ بك من العي و الحصر "([17]) وافرد الجاحظ بابا واسعا للخطابة، وأفاض فيه، لأنها كانت في عصـــره رمزا للفصاحة و البلاغة وطريقة من طرائق الجدل وعلم الكلام. و أبان الجاحظ أثناء حديثه عن الخطابة، قواعدها، وطرائـــــقـــــها وأصـــولها. أشار إلى شيوخها و أعلامها، ووضح عيوبها ودعـــا إلى تـــجنبها: (كاللثغة، وتنافر الحروف وغيرها).

وتعرض إلى صـــفات الخطيب الناجح، ونوه بمنزلته في قومه. ثم جنح إلى علم البلاغة والبيان فتحدث عن اللثغة، واللحن ومخارج الحروف، و الإيجاز، والبـــــيان، والإطناب، وغيرها، والمتصفح لها يجدها مبثوثة عبر صفحات الكتاب و أجزائه. كما عرض نماذج كثيرة من الشعر والأمثال والحكم، وكان يتعرض للمقطوعات الشـــعرية بالنقد والتحليل، فكان ناقدا بصـــيرا بفنـــــون القول و طرائقه. كما تناول الجاحظ في كتـــابه قضايا نقدية كانت دائرة الرحى على أيامه كثنائية اللفظ و المعنى، والقديم والحديث، و السرقات، و المذهب البديعي، وكان في كل ذلك له صولات وجولات تنبي عن تمكن و إلمام في المجالات النقدية والبلاغية و الأدبية.

تعرض الجاحظ في الكتاب أيضا إلى القصص والأخبار والـــراوية، كأخـــبار الخطباء والشعراء والقصاص وغيرها. أما الطرف فلا تكاد العين تخطئها، فالجاحظ جامع في تصانيفه برمتها بين الجد و الهزل، و من ثم اصطبغت كتبه بروح الدعابة والفكاهة. مما أضفى عليها صنعة نادرة.

وباختصار يمكن عرض الكتاب على النحو التالي:

1_ البيان والبـــلاغـة.
2_ القــواعد البــلاغية.
3_ الشـــعـــــر.
4_ الخـــطابة والخطباء.
5_ الأســـجـــاع.
6_ الرسائل والوصـــايا.
7_ القصـــص والأخبار.
8_ الحكـــم والأمـثال.
9_ أخبار الحمقى ونوادرهم.

ولقد أوضـح أحمد أمين أثناء حديثه عن البيان والتبيين موجزا أهم المضـامين فقال هـــو " مــختارات من الأدب، من آية قرآنية أو حديث، أو شعر، أو حكمة، أو خطبة ممزوجة بماله من آراء في مسائل عدة" [18] وأما ما يتعلق بمضمون الكتاب ومحتواه الذي عرضته بإيجاز ولم تكن لي فيه إلا نـــظـــرة الطائر كما يقال محاولة بسيطة للإمام بأهم الموضوعات التي طرقها الجاحظ في البيان والتبيين.

بعد ما تعرضنا إلى مضمون الكتاب بإيجاز وإيضاح الرؤية حول أهم القضـايا المطروحة فيه، وجب الآن التعرض إلى منهج الجاحظ الذي انتهجه في هذا السفر العظيم.

منهـج الكتـاب:

بعد ما تعرضنا إلى مضمون الكتاب بإيجاز وإيضاح الرؤية حول أهم القضـــــايا المطروحة فيه، وجب الآن التعرض إلى منهج الجاحظ الذي انتهجه في هذا السفر العظيم.

كما أن طريقة الجاحظ في التأليف مشهورة، وهي عنوان بارز لتآليفه، فهو غزير في معرفته يسوق من كل بستان صنفا، ومن كل زهرة نوعا، ومن كل فاكهـــة ضربا، فيخرج ألوانها الزاهية من المعارف المتنوعة المتباينة المتعددة يتخللـها خروج عن الموضوع عن قصد منه أو عن غير قصد وعرفت هذه الطريقـــــة المتبعة في عملية التأليف لدى الجاحظ بالطريقة الاستطرادية. والاستطراد هو: "الخروج من موضوع البحث إلى موضوعات أخرى بعيـدة، أو قريبة منه، هذا ما يعنى بالاستطراد عند الحديث عن منهج الجـاحـظ في التفكير؛ فالجاحظ لا يحافظ على وحدة الموضـــوع، بل يقحم فيه موضـــوعات جانبية، وغريبة"[19] وهكذا يبدو الكتاب معرضـــا متنوع النتاج مختلف الألوان والأزياء، فكتاب البيان والتبيين موضـــوعه الرئيس البيان، إلا أن الجاحظ يتطرق إلى موضوعات متعددة ومتباينة منها الخطابة وأصولها وأنواعها وأعـــــلامها، ومـــنها الكلام والتاريخ والحديث، ومنها الأخبار والطرف، و هلم جرا.

ومن هنا يتبين لكل من أمعن النظر في كتاب البيان و التبيين للجاحظ باحثا عن منهجية وطريقة تأليفه، لا يمكنه الوقوف على منهج بين اتخذه الجاحظ، إنما يلحظ أن الجاحظ يطوف

به هنا وهناك، ويبحر به في عوالم مختلفة ومتعددة، ويصطدم أثناء الإبحار بمفاجآت ومفاجآت تخرجه في نهاية الرحلة محملا بثقافة واسعة وألوان من المعرفة الموسوعية.

فمنهج الجاحظ في البيان و التبيين لا حدود له، ولا معالم يهتدى بها، وإنما غلب عليه الاستطراد والخروج من موضوع إلى أخر عن عمد أو دون عمد. ومن هنا كان الكتاب أشبه ببستان حافل بضروب المعرفة الأدبية. لاشك أن هذا المنهج الذي سلكه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين خاصة، ومؤلفاته عامة انقسم حوله الدارسون إلى فئتين، فئة اعتبرت طريقة الجاحظ من العيوب التي يؤاخذ عليها، وأخرى ترى أنها طريقة مثلى وفريدة تعمدها الجاحظ، وله في ذلك مسوغاته المعقولة. فالفئة الأولى اعتبرت منهج الجاحظ في التأليف ضربا من الفوضى والتمزق في طرح القضايا ومعالجتها، مما أدى إلى انعدام الوحدة الفكرية والموضوعية.

يشير أحمد أمين إلى هذه القضية، فيقول: " وفي كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تضبط واستطراد لا يحد " [20] بل يذهب إلى أكثر من هذا، و يحمل الجاحظ مسؤولية الفوضى على حد زعمه الموجودة في كتب الجاحظ وانتقالها إلى المصنفات التي جاءت من بعده فيقول: "والحق أن الجاحظ مسؤول عن الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي...فالمبرد تلميذه تأثر به في تأليفه " [21] وفئة أخرى ترى خلاف ذلك، وتعتبر منهج الجاحظ في طريقة التأليف منهجا حقق الهدف والغاية،فهذا الدكتور عبد المنعم خفاجي يدحض مقالة أحمد أمين الذي وصف أسلوب الجاحظ في البيان بالأسلوب الفوضوي وتحميله مسؤولية ذلك في المصنفات التي جاءت من بعده،إذ يقول: " وهذا خطأ في أساسه، فالجاحظ إنما ألف الكتاب ليكون موسوعة في الأدب والبيان،لا ليكون كتابا منهجيا محدودا " [22] من خلال هذه المقولة يوضح د.عبد المنعم خفاجي الغاية من الأسلوب الذي اتبعه الجاحظ في البيان والتبيين والمتمثل في أن الجاحظ أراد أن يزود القارئ بثقافة موسوعية متشعبة الروافد، متنوعة المعارف ، وأن يأخذ من كل علم بطرف، لا ليجعل منه قارئا محدودا.

ليس هذا فحسب، وإنما يذهب الدكتور عبد المنعم خفاجي إلى أبعد من ذلك ليزيد منهج الجاحظ توضيحا ، فيقول:" وليس الاستطراد فيه إغفالا للموضوع، ولا نسيانا لأصل البحث، و لصميم الفكر الأدبي في الكتاب " [23]

وذهب المسعودي يسوغ منهج الجاحظ في كتابه البيان و التبيين حين يقول: " وكان إذا تخوف ملل القارئ، وسآمة السامع، خرج من جد إلي هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة." [24]

وبعد هذه الآراء المتباينة حول منهج الجاحظ في التأليف، نجد هذا الأخير يتحدث بنفسه عن هذا المنهج ويسوغ اختياره دون غيره من المناهج إذ يقول: " فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها." [25] ويقول أيضا:" و إذا كانت

الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا وافرا." ([26])

خلاصة القول:

إنه مهما قيل عن طريقة الجاحظ ومنهجه في التأليف والكتابة في البيان والتبيين خاصة، ومؤلفاته عامة فإن البيان والتبيين يبقى من الكتب النفيسة، التي لا يمكن لأي باحث، أو دارس الاستغناء عنها، والجاحظ في حقيقة الأمر لا يجهل طبيعة التأليف ومناهجه، بل إن الجاحظ عمد إلى هذه الطريقة قاصدا، وحجته في ذلك أنه أراد إبعاد شبح الملل و الضجر عن القارئ من جهة، وإكسابه ثقافة موسوعية متنوعة الأفنان و الألوان، ثقافة يرتكز عليها في أبحاثه ودراساته على مختلف مصباتها ومشاربها من جهة أخرى.وقد شبه الدكتور عمر الدقاق كتاب البيان والتبيين بالمنجم الغني بالمعادن الثمينة فقال و" كان الكتاب أشبه بمنجم غني بالمعادن الثمينة التي تأثرت وتداخل بعضها في بعض فعز على ناشدها الاهتداء بيسر إليها." ([27])

نماذج مختارة من الكتاب:

بعد الانتهاء من الحديث عن منهج الكتاب، والإبانة عن بعض المواقف حول منهج الجاحظ في الكتابة،تم اختيار نماذج للتمثيل لا الحصر.

النموذج الأول: في باب البيان

يقول الجاحظ:" والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضجر حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع وإنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع." ([28]) ([28]) يستشف من هذا النموذج أن البيان عند الجاحظ هو ما كشف المعنى ووضحه. ثم يلخص القول في نهاية الفقرة مبينا معنى البيان فيراه الفهم والإفهام. بأي وسيلة من الوسائل استطاعت الإيضاح، وإيصال المعنى للقارئ فذاك هو عين البيان.

النموذج الثاني:

باب البلاغة

قال الجاحظ: بسم اللّه الرحمن الرحيم. قال: الحمد للّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه. و صلي اللّه على سيدنا محمد خاصة و على الأنبياء عامة. أخبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان و حدثني محمد بن أبان – و لا أدري كاتب من كان – قال قيل للفارسي: ما البلاغة ؟

قال: " معرفة الفصل من الوصل ".

قال: لليوناني ما البلاغة ؟

قال: " تصحيح الأقسام و اختيار الكلام ".

قال:للهندي ما البلاغة ؟

قال: " وضوح الدلالة و انتهار الفرصة و حسن الإشارة ". و قال بعض أهل الهند جماع البلاغة البصر بالحجة و المعرفة بموضع الفرصة. ثم قال و من البصر بالحجة و المعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة و ربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك و أحق بالظفر. قال: وقال مرة جماع البلاغة التماس حسن المواقع و المعرفة بساعات القول، و قلة الحروف بما التبس من المعاني أو غمض و بما شرد عليك من اللفظ أو تعذر. ثم قال: وزين ذلك كله و بهاؤه، و حلاوته و سناؤه.أن تكون الشمائل موزونة. والألفاظ معدلة، و اللهجة نقية. فإن جامع ذلك السكن و السكمت و الجمال و طول الصمت فقد تم كل التمام و كمل كل الكمال. [29]

النموذج الثالث: من باب الخطابة

قال الجاحظ:" ومن خطباء إياد (قس بن ساعدة) و هو من الذي قال فيه النبي صلى اللّه تعالى عليه و سلم: " رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر و هو يقول: " أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا و عوا. من عاش مات، و من مات فات، و كل ما هو آت آت." وهو القائل في هذه: " آيات محكمات: مطر و نبات، و آباء وأمهات، و ذاهب و آت، و نجوم تمور، و بحور لا تغور. و سقف مرفوع، ومهاد موضوع. و ليل داج، و سماء ذات أبراج. مالي أرى الناس يموتون و لا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم حبسوا فناموا " و هو القائل: " يا معشر إياد، أين ثمود و عاد و أين الآباء و الأجداد. أين المعروف الذي لم يشكر، و الظلم الذي لم ينكر. أقسم قسّ قسما باللّه أن دينا هو أرضى له من دينكم هذا " وأنشدوا له هذه:

في الذاهبين الأولين * من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * تمضي الأكابر منهم والأصاغر
لا يرجع الماضي ولا * يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة * حيث صار القوم صائر [30]

نماذج نقدية

1- اللفظ والمعنى:

يقول الجاحظ:" ثم أعلم - حفظك الله - إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، ممتدة إلى غير نهاية، و أسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة "[31] فالجاحظ يرى أن المعاني ليست محدودة، فهي ممتدة عبر مساحات لا يمكن حصرها فهي تمتاز بالاتساع خلاف للألفاظ التي تتنسم بالمحدودية والضيق، وأن الألفاظ لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الدربة و إعمال الجهد والتمرس.

2_ المطبوعون على الشعر من المولدين:

ويقول الجاحظ في معرض حديثه عن الشعراء المطبوعين من المولدين: " والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن عيينة وقد ذكر الناس في هذا الباب يحي بن نوفل، وسلما الخاسر، وخلف بن خليفة، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء وبشار أطبعهم كلهم" [32] نلاحظ من خلال هذا الرأي أن الجاحظ من النقاد الذين أنصفوا الشعراء المحدثين من المولدين، ولم يتعصب للقدماء على حسابهم، لأن الجاحظ لا يقيس الإبداع بالتقدم أو التأخر في الزمان، وإنما بالجودة و حسن النظم،هذا من جهة، ويقدم الطبع عن الصنعة والتكلف من جهة أخرى.

3 _ التنقيح والتجويد:

قال الجاحظ: " وكذلك كل من يجود في جميع شعره ، ويقف عند كل بيت قاله و أعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة.[33] من خلال ما سبق يتبين أن الجاحظ يرى أن التدقيق و إعادة النظر في العملية الإبداعية يعتبر مطية إلى الجودة والاستواء. فمحك الإبداع لدى الجاحظ يكمن في الجودة، ليس الكثرة كما قال ابن سلام وغيره.

4 _أجود الشعر:

قال الجاحظ: " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان" [34] فهو يذهب في هذه المقولة إلى أن الشعر الجيد هو ما كانت ألفاظه محبوكة، مسبوكة، وما تلاحمت أجزاءه، وأخذ بعضها برقاب بعض، وسهلت مخارجه وبعد عن التعقيد ، والتكلف.

ومن خلال ما ذهب إليه الجاحظ يمكن القول: بأن الجاحظ كان سباقا إلي ما اصطلح عليه في العصر الحديث بالوحدة العضوية التي قال بها الرومانسيون و يتجلى ذلك في قوله: "....قد أفرغ إفراغا واحدا ،وسبك سبكا واحدا " [35]

5_ صفات الكلام و طبقاته:

قال الجاحظ:" وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون عربيا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات " ([36]) يجلي الجاحظ من خلال هذا الرأي صفات وخصائص اللفظ الفصيح البليغ، فهو كل لفظ جانب العامي، والسوقي، والساقط، وابتعد عن الغامض والوحشي هذا من جهة، ويرى أن الوحشي من الكلام لا يفهمه إلا الوحشي من الناس، والسوقي لا يفهمه أيضا إلا السوقي، لأن كلام الناس على طبقات، والناس أنفسهم طبقات.

6_ رأيه في طريقة الكتاب و مدحه لهم:

قال الجاحظ:" أما أنا فلم أرقط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا "([37]) مذهب الجاحظ في الكتابة: الوضوح والسهولة والابتعاد عن التوعر والوحشي من الألفاظ، والساقط السوقي، وبهذه الخصائص جعل محكا لمعرفة الطريقة المثلى في البلاغة لدى الكتاب.

7_ الطبع والتكلف:

قال الجاحظ في معرض حديثه عن الطبع و التكلف، مشيرا إلى أن العرب غلب عليهم الطبع، وكانوا بمنأى عن التكلف والتصنع والتزلف. فقال: " وكانوا أميين لا يكتبون، مطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع: وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر"([38])

8_ المعني الشريف ، واللفظ البليغ:

يعتبر الجاحظ من النقاد الأوائل الذين قالوا بنظرية المعنى الشريف، واللفظ البليغ ثم تأثر به من جاء بعده.و في هذه النظرية يوضح الجاحظ بأن المعنى واللفظ عنصران متلازمان، ولا يمكن الفصل بينهما. ويرى أيضا أن الكلام كلما ابتعد عن التكلف، والتنافر، والاختلال، كلما كان له فعله في النفوس، وأثره في القلوب. يقول:" و أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه...فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع صنيع الغيث في التربة الكريمة"([39]) مما سبق من أراء يتبين لنا أن الجاحظ استطاع من خلال كتابه البيان و التبيين أن يستغرق أغلب القضايا النقدية التي شكلت مدار الدرس النقدي في النقد العربي، وكان الجاحظ يمثل حجر الأساس فيها، وحق له أن يسمى زعيم البيان والنقد العربيين.

قيمة الكتاب و آراء الدارسين فيه:

لا شـك وأن كتاب البيان والتبيين من أجل المصـادر الأدبية والنقدية والبلاغية في السـاحة الفكرية الثقافية ويعد دائرة معارف تزخر بألوان المعرفة المـتنوعة تعطيك من كل علم طرفا، ومن كل بستان زهرة، فهو ينبوع يتفجر أدبـا، وبلاغة، وشعرا، وأخبارا، وسيرا، وقصصا، ونوادر، وخطـبا، ووصايا ورسائل وأسجاعا، وكل هذه الألوان عرضها الجاحظ بأسلوب شيق جذاب يدفع القارئ إلى المتابعة والاسـتزادة منه. ومهما أخذ عن الكتاب من عيوب في المنهج خاصـة، إلا أن ذلك لن ينقص من قيمته وعطائه الفياض الـذي لا ينضب قال عنه الدكتور خفاجي: "والكتاب في مجمل الأمر ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة والفكر الذاتي ، وقد خدم الجاحظ به قضـية البيان خدمة لا تقـدر بقيمة "([40]). وقال أبو هلال العسكري في معرض حديثه عن كـتب البلاغة و: "كان أكبرها كتاب البيان والتبيين لأبي عمرو بن بحر الجاحظ وهـو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع لما اشـتمل عليه من الفصـول الشـريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أ سماء الخطباء والبلغاء " ([41]). وقال عبد الـسلام هارون محقق الكتاب مبينا عن أهمـيته ومدى اسـتفادة الدراسـيين من عطائه: "إنه ليس يوجد أديب نابه في العربية لم يسـمع بهذا الكتاب، أو لم يفد منه، وقلما نجد أديبا من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب " ([42])

إن كتاب البيان والتبيان مهما قيل عنه سوف يبقى شامـخا كالطود الأ شم يـضاهي الثريا، ومعينا يتدفق بالعلم في كل حين وأوان على الرغم من قدم العهد، وطول الأمد.

فصـاحب الكتاب تكالبت عليه الأسـقام والأوجاع والآلام، وظل يكابدها إلى أن فارق الدنيا تاركا وراءه عصارة فكره على الورق، مـحصلة لأتعاب سنين سلخها من عمره في فضاء البحث و التنقيب، والتأليف والإبداع، فمن كان هذا ديدانه ودأبه، قمين أن ينبت في قلوب الآخرين.

إذا رحل الجاحظ عن الدنيا، وبلي الجسد، وبقي علمه وفكره، وأدبه شهود عيان خلدوا ذكره و ذكراه على مر الأجيال والحقب.

الخاتمة:

و من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى بعض النتائج نوجزها في النقاط التالية:

1- تمتاز كتب الأخبار بالشمول والتنوع في ضروب الثقافة والمعرفة، ومن ثمة اصطلح على تسميتها بكتب الأخبار، أو كتب الثقافة العامة، أو كتب الأدب، أو كتب المحاضرات.

2-كتب الأخبار منهل لا ينضب ينهل منه الباحثون و الدارسون في مباحثهم و دراساتهم الأدبية،واللغوية،والبلاغية،و النقدية و غيرها.

3- كتب الأخبار غير متخصصة، ولا تشمل على فن من الفنون، وإنما تعالج فنونا شتى وفي مجالات مختلفة.

4-كتب الأخبار تغذي العقل وتنمي الفكر، وترهف الحس.

5- كتب الأخبار تدخل السرور والمرح، و الفكاهة على نفس القارئ، بما تحتويه من طرف وملح ونوادر.

6-كتب الأخبار غايتها القصوى إكساب المتلقي ثقافة غزيرة، وعلما واسعا.

7-مدار الدراسات قديما وحديثا يتكئ على هذه النوع من الكتب، فما من بحث، أو دراسة إلا واغترفت من بحر علمها، واقتنصت من شوا ردها التي يسهر الخلق جراها و يختصم.

8- حفظت لنا جانبا ضخما من التراث العربي الذي ظل ردحا من الزمن معتمدا على الرواية الشفهية و الذاكرة.

وعلى الرغم مما قيل عن طريقة هذه الكتب ومنهجها الاستطرادي الطاغي عليها، إلا أن أصحابها استطاعوا أن يحققوا الغايات التي سطروها، وجعلوا المتلقي مشدودا إلى هذه المصنفات يكرع منها في كل زمان و مكان، ولا مندوحة له في الاستغناء عنها، ففيها الزاد، والذخيرة، وفيها المتعة والفكاهة و الملحة والطرفة. فهي مصادر لا غنى للدارس، أو الباحث عنها، فهي الموارد التي يرجع إليها في كثير من الدراسات الأدبية والنقدية.

الهوامش:

[1] – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان،ج 1 ، ط10 ، (د ت) ، ص309.

[2] – نفسه، ص 320

[3] – المرجع نفسه، ج1، ص 203

[4] – الجاحظ، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (ب ،ط)، (د ق)، ج1 ص81

[5] – الجمحي، محمد بن سلام، طبقات الشعراء، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ،ط) 1969، ص10

[6] – أحمد أمين، ضحى الإسلام،ج1، ص321.

[7]– المسعودي، مروج الذهب و معادن الجوهر،دار الأندلس بيروت لبنان، ط 5، 1983 ج2،ص40.

[8] – ابن النديم ، الفهرست،دار التونسية للنشر،تح د. مصطفى الشويخي (ب ط) 1985 ص49.

[9] – حمروني الطاهر، منهج أبي علي المر زوقي في شرح الشعر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر (ب ط) 1985، ص16

[10] – المرجع نفسه، ص16

[11] – ابن خلدون، المقدمة، دار العودة بيروت، (ب ط)، (د ت)، ص460.

[12] – الجاحظ، عثمان بن بحر، الحيوان ، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، مج1، تح. يحي الشامي، ط3، 1990،ص9.

[13] – المبرد، أبو العباس، الكامل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ت عبد الحميد هنداوي، مج2، ط1، 1999م، ص293.

[14] – أحمد أمين، ضحى الإسلام ج 1 ص390.

[15] – المسعود ي، مروج الذهب،ج4 ص109.

[16] – الجاحظ ، عثمان عمر بن بحر،البيان و النبيين،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان (ب ط)، ج 3 ص14 م.

[17] – م. نفسه، ج1 ص2، دار المكتبة العلمية.

[18] – أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج1، ص350.

[19] – ينظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، 1960، ط3 ص 166

[20] – أحمد أمين، ضحى الإسلام،ج1،ص392

[21] – المرجع نفسه،ج1 ص 392

[22] – عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ،دار الكتاب اللبناني بيروت 1982(ب ط)،ص 318.

[23] – المرجع نفسه، ص318

[24] – المسعودى، مروج الذهب، ج2، ص344.

[25] – الجاحظ، الحيوان ج3، ص7.

[26] – م. نفسه،ج3 ص7.

[27] – عمر الدقاق، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم و الأدب والتراجم،منشورات جامعة حلب، ط5 ، 1977، ص87.

[28] – الجاحظ ، عثمان عمرو بن بحر ، البيان و التبيين،ج1،ص43،42.

[29] – الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، ص43.

[30] – م.ن، ج1، ص 168.

[31] – الجاحظ، البيان والتبيين،مج1 ص7

[32] – م، ن، مج 2، ص50.

[33] –ـ م، ن مج 2، ص6.

[34] – البيان و التبيين مج1،ص67

[35] – م. ن، مج1، ص67

[36] – م. ن، مج1، ص76

[37] – م.ن،مج1، ص137

[38] – البيان والتبيين،مج3، ص28.

[39] – م ن مج 1 ص83

[40] – عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص317

[41] – أبو هلال العسكري، الصناعيين، ص 13.

[42] – الجاحظ،البيان والتبيين، ج1،(تح)،د.عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة،ط3، 1388هـ 1968م،